

مقالة عرفانية

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من حارت لطائف الأوهام في بيداء كبريائه وعظمته، وسبحان من تنزه عن مجانسة المخلوقات ، وسبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، عجزت العقول عن إدراك كنه جماله ، وقصرت الألسن عن وصف ثنائه كما يليق بجلاله .

نحمده على حسن توفيقه ، ونسأله هداية طريقه ، وإلهام الحقّ بتحقيقه ، وقلبًا موقنا بتصديقه ، وعقلا نورانيًا بعناية تسبيقه ، ونفسا مطمئنة من الجهل وتضييقه، وفكرا ساميا عن زخرف الفاني وتزويقه ، وبصيرة تشاهد سير الوجود في تغريب الدور وتشريقه ، وقريحة منقادة بزمام الشرع وتوثيقه ، ووقتًا مساعدًا بجمع الكلام وتفريقه .

والصلاة على من أوتي جوامع الكلم ، وبه تم كمال مرتبة النبوة وخُتم ، وعلى آله وأصحابه الطاهرين المطهرين من الأدناس والأرجاس ، المحفوظين في سماء قدسهم، خزان العلوم والحكم وهداة الأمة للتي هي أقوم .

أما بعد : فيقول الحقير في عيون العقلاء ، والفقير في فنون الفضلاء أحمد الشاذلي أحسن الله عواقبه : هذه مقالة عرفانية سطرتها لك من نفائس خزائن أهل الله المستضيئين بنور الله، الراسخين في العلم ، وقد لخصتها لك من كتب أعلامها والحمد لله الفتاح العليم .

الكلام في معنى العرفان والعارف

العرفان لغة : المعرفة .

اصطلاحًا : هو بحث خاص يعتمد على التريض للوصول إلى المجهول .

وغاية هذا البحث : هو نيل الشهود ، والوقوف على عين الحقيقة .

أما العارف :

ويقول أبو علي بن سينا في النمط التاسع من الإشارات في مقام تعريف العارف والفرق بينه وبين الزاهد والعابد :

من غض طرفه عن التنعم بالدنيا يسمى «الزاهد» ، ومن يداوم على أداء العبادات مثل الصلاة والصوم وغيرهما يسمى «العابد» ، ومن منع ضميره من التوجه إلى غير الحق، ووجهه إلى عالم القدس كي يشرق عليه نور الحق يسمى «العارف» .

ثم يقول أبو علي بن سينا في مقام توصيف المراحل لسير العارف من الخلق إلى الحق :

في ذلك الوقت يغيب العارف عن نفسه فيرىٰ الله فقط ، وإذا رأىٰ نفسه فمن جهة أن في كل لحاظ لابد من لاحظ يرىٰ بنحو ما ، في هذه المرحلة يصل العارف إلىٰ الحق .

إذا علمت هذ فاعلم ـ وفقني الله وإياك إلىٰ طريق الرشاد وتحصيل الكمالات ـ أن التصوف بمعناه الاصطلاحي ـ أعني: الاعتماد علىٰ التريض في الكشف عن المجهول ـ لم يكن موجودًا قبل الشيخ الأكبر محيي الدين ـ قدس الله سره ـ .

فالشيخ ـ قدس الله سره ـ هو الذي دوّن أصول العرفان النظري، وبيّن مقامات العارفين، ويظهر هذا جليًّا في كتابيه «الفتوحات والفصوص» ، وقام من بعده تلميذه صدر الدين القونوي فصنف مثلما صنَّفَ، ولكن تصنيفه كان علىٰ نحو أكثر دقة ، ويظهر هذا في كتابه «مفتاح الغيب» .

وعليه فالتصوف قبل الشيخ الأكبر كان مجرد سلوك عملي محض يعتمد علىٰ الذوق والوجدان ، وليس سلوكًا علميًّا نظريًّا ، فهو مجرد فعل يَدخل به صاحبه ساحة البحث عن المجهول بطريقة خاصة ارتضاها أصحاب هذا النهج ، وهي طريقة الفيض والفتح الإلهي ــ الذي يحصل منها عين المشاهدة التي تفيدهم عين اليقين الذي يبحثون عنه ولا يرون في غيره من طرق البحث بديلا ــ لا بطريق النظر العقلي .

فصاحب هذا السلوك يرىٰ أنّ البحثَ العقلي ــ النظري ــ قاصِرٌ عن إفادة اليقين الذي يفيده هذا الطريق الذي ارتضاه حيث يرىٰ مجهوله كيفما يرىٰ محسوسه فيحضر عنده المجهول حضورا عينيًّا .

ثم تتابع أهل العرفان علىٰ طريقة الشيخ الأكبر في التصنيف إلا أنهم سلكوا بجوار هذا المسلك مسلكَ الإثبات، والذي جرّهم وألجأهم إلىٰ هذا المسلك هو الهجومُ الضاري من المناهج المخالفة له[1]، والتي ترىٰ أن المنهج العرفاني منهج ادعائي لا يتجاوز مرتبة الدعوىٰ إلىٰ مرتبة الإثبات ، حيث إن الصوفي إذا سلك هذا المسلك العرفاني الخاص به فَـكُشِفَ له عن مجهوله ، لا يستطيع إثبات هذا للغير ولا علىٰ الغير ، فيتوقف هذا الكشف عنده لا يتجاوزه إلىٰ غيره .

ولا يملك الصوفي في طريقه العرفاني إلّا أن يدل غيره إلىٰ مسلكه ، ومع هذا توجد مشكلة أخرىٰ تواجه أصحاب هذا المنهج وهي أنه قد يسلك هذا الغير نفس المسلك فلا ينكشف له نفس المجهول ، وقد ينكشف لا علىٰ الوجه الذي حصل للأول ، فقد ينكشف للثاني من وجه أكثر وضوحًا من الأول، أو أقل منه .

فتبقىٰ هذه المشكلات قائمة أمام المنهج كمنهج ذوقي وجداني محض ، ولكن أصحابه من أهل العرفان النظري قرروا التصدي لهذه الشبهة القوية التي قد تنسف مذهبهم نَسْفًا فلا تذر منه شيئًا .

---

[1]) وأشد أعداء هذا المنهج ضراوة هو المنهج الظاهري ثم المنهج العقلي .

وفي هذا المقام يقول القيصري في مقدمة شرحه لتائية ابن الفارض : « هذا العلم وإن كان كَشفيًّا ذَوقيًّا لا يحظى منه إلا صاحب الوجد والوجود، وأهل العيان والشهود، ولكن لمّا رأيتُ أن أهل العلم الظاهر يظنون أنّ هذا العلم ليس له أصل يبتنى عليه ، ولا حاصل يوقف لديه ، بل تخيلات شعرية وطامات ذكرية ، لا برهان لأهله عليها ، ومجرد دعوى المكاشفة لا يوجب الاهتداء إليها ، بَـيّنتُ موضوع هذا الفن ومسائله ومبادئه ، وما ذكرتُ من البرهان والدليل هنا وفي مقدمة شرح الفصوص ، وباقي المسائل التي كتبتها في هذه الطريقة إنما أتيتُ به إلزامًا لهم بطريقتهم وإفحامًا لهم بشريعتهم ، فإن كشف أهل الشهود ليس حجة عليهم ، وظاهر الآيات والأخبار المبيّنة لما يقوله أهل الكشف مؤول لديهم ، فوجب أن نقول معهم بلسانهم » .

ويقول ابن الفناري في مقدِّمة مصباح الأنس : «واجتهدت في تأسيس تلك القواعد الكشفية حسب الإمكان بما توافق عقل المحجوبين بالنظر والبرهان » .

واعلم سدد الله خطاك أن أهل هذا الطريق العرفاني انطلقوا من مبدإ بَنوا عليه منهجهم وطريقتهم وهو أن النفس الإنسانية عندهم عالمة بذاتها ، فلا تحتاج إلى معلم أو كتاب ، فالتعليم عندهم لا يكون إلا من خلال التريض والتجريد وتصفية النفس من الشواغل والحجب التي أحاطتها بسبب حلولها في الجسد الذي أحال بينها وبين عالمها الغيبي ، وعندما يحصل الانفصال الصوري بين

النفس والجسد تتصل النفس بعالم الغيب فتتحصل على علومها اللدنية بطريق المشاهدة الحقيقية .

فالمسلك العرفاني يرى أنه لا طريق للكشف عن المجهول إلا عن طريق تصفية القلب وتزكية النفس بواسطة الرياضة والتي أقرها الشارع الحكيم بل طالب بها من التزم التسليم لجناب القدس وطلب السياحة في حضرته العليّة .

إلا أنه وبعد كل هذه المحاولات تبقى المشكلة التي يستحيل حلها ووضع حد لها، وهي أن هذه المكاشفات العرفانية غير قابلة في ذاتها للبيان من خلال العبارات والألفاظ ؛ إذ هذه الأحوال والمشاهدات ليس لها في عالم الوضع لفظ موضوع بإزائها .

وفي هذا المقام يقول أهل العرفان : الذي يحاولون بيان المعاني الشهودية العرفانية من خلال القوالب اللفظية والعبارات اللُّغوية فهم كالذين يريدون بيان الألوان المختلفة للذي ولد من بطن أمه أعمى .

الشيخ في الطريق العرفاني

الشيخ في هذا الطريق مفقود ولقياه متعسر، وقد وهم أهل زماننا فظنوا أن الشيخ الصوفي هو الذي يعلم تلامذته بالتلقين، وبسبب انتشار هذا الوهم تصدر كل مدع.

والشيخ في هذا الطريق هو من يرفع عنهم الحجب ويوجههم إلى قبلة أهل العرفان ويعرفهم جهة شمس الإشراق ، فتحصل لهم معنى الإشارة ، وقد عبر عن هذا المقام العارف الكبير ابن عطاء الله السكندري في « لطائف المنن » فقال :

ليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه ...

وليس شيخك من واجهتك عباراته، إنما شيخك من سرت فيك إشارته ...

وليس شيخك من دعاك إلى الكتاب ، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب ... وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك من نهض بك حاله ...شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى ...

شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك ...

نهض بك إلى الله، فنهضت إليه ...

وسار بك حتى وصلت إليه ...

ولا زال محاذيًا لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة ، وقال :

«ها أنت وربك » [٢] .

---

[٢]) إيقاظ الهمم لابن عجيبة.

الفرق بين الطريق الذوقي
والطريق النظري «التعليم المدرسي» عند الصوفية

وقد ضرب الصوفية في كتبهم عدة أمثلة لبيان الفرق بين الطريقين، فمنها ما قالوه:

أن لو كان للإنسان بستان يريد أن يجلب إليه الماء ، فأمامه طريقان:

الأول: أن يحفر له قناة طويلة إلى أطراف النهر ، فيأتيها بالماء من مكان بعيد ملوثًا بالطين والشوائب المختلفة.

الثاني : أن يستمر في حفر باطن هذه الأرض حتى يتفجر منها ينبوع ماء عذب وصاف من مكان قريب .

فالطريق الأول : هو طريق التعليم المدرسي الطويل الملوث بالأوهام الفاسدة.

والثاني : هو طريق التصوف الصافي.

موقف الصوفية « أهل العرفان » والمسلك العرفاني

من المسلك العقلي «الطريق النظري» وأصحابه

اعلم أنه قد تواتر عن أهل العرفان ذم المسلك العقلي فلم يألوا جهدًا في التعريض به، واتهامه بالقصور والعجز عن الوصول إلى حقائق الأشياء، والتشكيك في أحكامه وقواعده، بل نعتوا هذا الطريق بأنه حجاب عن الوصول إلى الحق والحقيقة.

قال الشيخ الأكبر ــ قدس الله سره ــ في فتوحاته : قد نبهتك على أمر عظيم لتعرف لماذا يرجع علم العقلاء من حيث أفكارهم ، ويتبين لك أن العلم الصحيح لا يعطيه الفكر ، ولا ما قررته العقلاء من حيث أفكارهم ، وأن العلم الصحيح إنما هو ما يقذفه الله في قلب العالم ـ وهو نور إلهي ـ يختص الله به من يشاء من عباده من ملك ورسول ونبي وولي ومؤمن ، ومن لا كشف له لا علم له» .

فالعلم الحقيقي عند الشيخ الأكبر هو العلم الحاصل بالفيض الإلهي ، وهو إرثٌ إلهي يَهبه لمن يشاء من عباده لا يَتوقف على تعليم وتحصيل ولا تدرج ، إلا أنه موقوف على فراغ القلب وصفاء النفس وتزكيتها .

فيرى الشيخ الأكبر أن معرفة الله لا تكون إلا من هذا الطريق ـــ طريق الرياضات والمجاهدات والخلوات ـــ وأنه من المحال معرفته تعالى من طريق الفكر والنظر .

وكذا يرى صدر الدين القونوي تلميذ الشيخ الأكبر فيقول في هذا المقام : إن الطريق الوحيد المتعين هو التوجه إلى الله تعالى بالتعرية الكاملة، والالتجاء التام، وتفريغ القلب بالكلية عن جميع التعلقات الكونية، والعلوم والقوانين .

ويقول القيصري في مقدمة شرح الفصوص: إنما كان صاحب النظر الفكري غير معتبر عند أهل الله ؛ لأن المفكرة جسمانية يتصرف فيها الوهم تارة، والعقل أخرى، فهي محل ولايتهما ، والوهم ينازع العقل .

معنى الكشف

ومراتبه وأنواعه عند أهل العرفان

لقد تعرض القيصري في مقدمة شرحه للفصوص إلى بيان مراتب الكشف وأنواعا فقال :

اعلم أن الكشف لغة : رفع الحجاب.

واصطلاحًا : هو الاطلاع على ما وراء الحجب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودًا أو شهودًا ، وهو معنوي ، وصوري، وأعني بالصوري: ما يحصل في عالم المثال من طريق الحواس الخمس .

ثم قال : وهذه المكاشفات ـ أي: الصورية ـ قلّ ما تقع مجردة عن الإطلاع على المعاني الغيبية ، بل أكثرها يتضمن المكاشفات المعنوية، فتكون أعلى مرتبة ، وأكثر يقينًا ؛ لجمعها بين الصورة والمعنى .

ثم قال : ومنبع هذه الأنواع من المكاشفات هو القلب الإنساني بذاته ، وعقله المنور العلمي المستعمل لحواسه الروحانية، فإن القلب عينًا وسمعًا ، وغير ذلك من الحواس .

ثم قال : وأما الكشف المعنوي المجرد من صور الحقائق الحاصل من تجليات الاسم

العليم والحكيم ، فهو ظهور المعاني الغيبية والحقائق العينية .

الميزان والقانون المعتمد لدى أهل العرفان
والذي به يتميز الحق من الباطل ـ عندهم ـ

البعض يظن بل الكثير أن أهل العرفان لا يملكون معيارا يتميز به الحق من الباطل عندهم ، بل قد يتوهم الكثير أن ما يحصل لهم هو مجرد تخيلات وإلقاءات شيطانية .

والحق أن العرفاء أنفسهم يعترفون ويقرون أن بعض ما يحصل للسالكين هو من صنع الخيال ومن صنيع الشيطان فيلبس عليهم فيختلط الحق بالباطل ، ويظن السالك السراب ماء ويعد الخيال حقيقة ومشاهدة .

ولأجل هذا قد وضعوا معيارا يحصل به التمييز والتميز :

فيقول القونوي في مقدمة « مفتاح الغيب » :

لكل علم معيار يعرف به صحيح ما يختص به من سقيمه ، وخطؤه من صوابه ... ثم قال :

ولّما كان شرف كل علم إنما هو بحسب معلومه ومتعلقه ، كان العلم الإلهي أشرفها؛ لشرف متعلقه ، وهو الحق تعالى ، فكانت الحاجة إلى معرفة موازينه وتحصيل ضوابط أصوله وقوانينه أمسّ ، وإنه وإن قيل فيه أنه لا يدخل تحت حكم ميزان ، فذلك لكونه أوسع وأعظم من أن ينضبط بقانون مقنن ، وينحصر في ميزان معين، لا لأنه لا ميزان له ، بل صحّ عند الكل من أهل التحقيق من أهل

الله أن له بحسب كل مرتبة واسم من الأسماء الإلهية ، ومقام وموطن وحال ووقت وشخص ميزانًا يناسب المرتبة والاسم .

وأكد القيصري في مقدمة الفصوص هذا الأمر وقرر أن لهذه الطريقة ميزانًا يعرفه أرباب الذوق والشهود بحسب مكاشفتهم، كما أن للحكماء ميزانًا يفرق بين الصواب والخطأ .

فيقول القيصري في مقدمته الفصوص : ليس صحيحًا أن المكاشفات العرفانية والشهود مصون عن الخطإ والاشتباه ، بل في كثير من الموارد ما يظهر أنه مكاشفة شهود الحقيقة يكون في الواقع من صنع الخيال ومن الإلقاءات الشيطانية التي لا تزيل الحجاب عن الحقيقة فقط ، بل هي تقلب الحقيقة وتوجب الضلال .

وهذا الميزان :

- قد يكون عامّا : وهو القرآن والحديث المبني كل منهما على الكشف التام المحمدي عليه السلام .
- وقد يكون خاصًا : وهو ما يتعلق بحال كل منهم الفائض عليه من الاسم الحاكم ، والصفة الغالبة له .

والذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ من خلال استقراء كتبهم أن ما قاله القونوي وأكده القيصري يكون في حالة وجود المرشد المعين والشيخ المربي السالك .

أما في حالة فقدان المرشد ، فيختلف الأمر وفيه يقول **أبو حامد الأصفهاني المعروف** « **بتركة** » **في آخر قواعد التوحيد :**

اعلم أن أصحاب النظر والتعليم عندهم علم يمكن أن يتميز به النظر الصحيح عن الفاسد ... وليس عند السالكين من أصحاب المجاهدة آلة شأنها ما ذكرناه .

ثم قال : لابد للسالكين من أصحاب المجاهدات السائرين في طريق الحقيقة بمساعي الجد والاجتهاد أن يحصلوا العلوم الفكرية والمعارف اليقينية النظرية بعد تصفية القلب عن شوائب النسب الخارجية بقطع العلائق المكدرة المظلمة وتحليته بمكارم الأخلاق ومحامدها حتىٰ تصير هذه العلوم النظرية التي من جملتها الصناعة الآلية المميزة بالنسبة للمعارف اللدنية كالعلم الآلي المنطقي بالنسبة للعلوم النظرية .

فإن بها يتمكن صاحبها من التمييز بين الموزون وغير الموزون مما يتحير فيه أصحاب النظر ، إلا إذا استحصل السالك المجتهد تلك الملكة فلو تحير في أثناء الطلب والسلوك توقف في بعض المطالب التي لا يحصل به بالفكر ، يتمكن من استخراجه بتلك الملكة الفاضلة ومن توجيه حقيته للمسترشد الناقد ، ولا يخفىٰ أن هذا أتم في الكمال والتكميل وأكمل مما لم يكن له ذلك .

ثم قال في نهاية مقاله : هذا إذا لم يكن له شيخ مسلك يرشده ، وإمام مكمّل يقتدىٰ به ، وبيده مقاليد أقفاله وأحواله ، وأما إذا كان له ذلك فلكل منزل ومقام بحسب تفرسه مراقي استعداد علىٰ تلك العلوم بموازينها .

ما السبب

وراء عدول أصحاب العرفان عن المنهج العقلي

يظهر من خلال استقراء كلامهم أن هناك عدة أسباب كانت وراء هذا العدول ، وعند التأمل نجد أن جميع هذه الأسباب تعود إلىٰ سببين رئيسيين وهما :

الأول : أن طريق النظر العقلي لا يفيد النفس السكينة والراحة المبحوث عنهما، فكل باحث خاصة الباحث في مقام الذات الإلهية والخائض في جنابها يبحث عن مرتبة اليقين التي لا يصاحبها شك بحال ، وعليه فإن أهل العرفان يعتقدون أن طريق النظر العقلي لا يفيدهم هذا اليقين ؛ لاحتمال الخطأ والاشتباه والشك الذي يصاحب النظر العقلي ؛ إذ الشك والخطأ قائم علىٰ أي حال .

وهذا الذي جعل الحجة ـ قدس الله سره ـ ينتقل إلىٰ هذا المشرب بعدما لم يجد سبيله وغايته في طريق النظر العقلي .

وفي هذا المقام يقول الشيخ الأكبر ــ قدس الله سره ــ :

«واعلم أنّ أهل الأفكار إذا بلغوا فيها الغاية القصوىٰ أداهم فكرهم إلىٰ حال المقلِّد المصمم، فإن الأمر أعظم من أن يقف فيه الفكر ، فما دام الفكر موجودًا ، فمن المحال أن يطمئن ويسكن .

فالطريق النظر والفكر عند أهل العرفان لا يخلو من الشكوك والشبه والأوهام وكذا الخطأ والزلل .

السبب الثاني : هو أن غاية ما يدركه العالِم في طريق النظر والفكر هو صورة الشيء ، لا الشيء نفسه .

أما أهل العرفان فيبحثون عن معرفة الكنه لا الصورة، يبحثون عن الحضور لا الحصول، فمجرد حصول الصورة ليس كمالاً يبتغيه العارف.

فهم يرون الفرق بين من سمع عن جرم الشمس وأنواره ، وعن كيفية طلوعها وغروبها، إلى غير ذلك، وبين من وقف على كنه هذا الجرم وعاين أنواره، وشاهد كمال إشراقه، فالثاني شاهد بعينه ما علمه الأول بسمعه .

خاتمة

في الغاية من هذا البحث العرفاني

ـ عند أصحابه ـ

اعلم أيها الرفيق أنّ الغاية المرجوة من هذا البحث والموازية لعناء الطلب في هذا الطريق العرفاني والتي يبتغيها العارف من سلوكه هي الوصول إلى مقام الشهود والحضور ، وهو المقام الذي لا يرى في الوجود غير الله تعالى ، وهي مرتبة «فأينما تولوا فثم وجه الله » .

تتمة : في أتباع هذه المدرسة

لهذه المدرسة أتباع كثيرون منهم : الحلاج وابن الفارض والمولوي الرومي وغيرهم الكثير .

والشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي وهو رأسهم ومركز دائرتهم العرفانية ؛ لأنه هو الذي استطاع أن يجعل التصوف علمًا مستقلا له موضوع ومسائل ومبادئ، وكل من جاء من بعده من العرفاء يدور في فلكه وفي دائرته التي رسمها لأهل هذا السلوك العرفاني .